

## في محطة القاهرة

للأستاذ علي الطنطاوي

ويطلق ، والناس يدخلون ويخرجون ، لا يلتفت أحد إلى أحد ، ولا يسأل سائل أخاه عن آلامه ولا عن آماله ، فهو يستمتع بعمراته وحده ويتجرع أحزانه بلا معين ...

والمحطة كالدينا تسمد وتشقى ، وما تسمد المرء ولا تشقيه إلا نفسه وذكرياته . هذا يحبها لأنه دخلها في مسرة ، واستقبل فيها الحبيب ، فهو يذكر كل ما مر بها ، أو سمع صغير قطرها ، تلك الساعة التي كانت عنده العمر ، ساعة جاءه البشير بقدم حبيبه فذهب إليها يكاد يطير من الشوق ، وقام ينتظر القطار لا يستطيع أن يستقر في مكان ، واستبطأ الوقت فهو يخرج ساعته كل دقيقة ، يحسب الدقيقة من الانتظار دهرًا ، فيراها لا تتحرك عقاربها ، حتى إذا صفر القطار وهدر حلق له قلبه ، وغلى في عروقه دمه ، فركض إليه ، فلما أبصره رأى سواده نورًا مشرقًا لأنه يحمل الحبيب ، وناره التقدة بردًا على قلبه وسلامًا ، ودخان أرق من النسيم الليليل ، وركضه أخف من الطيف الساري وأقبل يزاحم الناس ، يطأ بقدمه حيث لا يدري لأن بصره

دخل ( المحطة ) في اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٩٢٨ وخرج من ( المحطة ) في اليوم التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٩٤٦ دخل من باب ، وخرج من باب ، وكانت المحطة كأنها النسخة المختصرة من كتاب الدنيا ، وكأنها الصورة المصغرة لها : كل ركض إلى فائته ، ويزحم بكتفه ، ويدفع بيده ، ويمتدى ويمتدى عليه ، والحالون يهبون أموال الناس ما استطاعوا ، والناس يتقونه ما قدروا ، والقطر تصفر وترجر وتغلا الجو دخانًا وشرارًا ، وتسرع لتفرق أحبابًا ، وتجمع أحبابًا ، وترين دموعًا وتضحك أفواهًا ، وكان صغيرها لحن الوصال المذبذبان ، ونواح الفراق الأليم لآخرين ؛ وكان الباب يفتح أبدأ

وتوبوا وتبرأوا مما قلتم ، وخير لكم أن تدرسوا طبيعة النيل والأضرار الخوفية من تعزيقه ، وأن تعرفوا ما ذا تريد إنجلترا بفصل السودان عن مصر وضمتها إلى الجزء المفضى إلى جنوب إفريقيا والجنرال سمطس ، فهناك البلاء الأعظم .

أيها المصريون السودانيون : إن النيل هو إفريقية كلها ، فاحذروا أن تضيئوا أوطانكم ، وتلغوا بأجسادكم ، وتضعوا أعناقكم في نير المبودية السرمدية إذا احتوشتكم المناصر الغربية عن إفريقية الناعة التي بدأت تستيقظ من غفوة طالت عليها الآباد . احذروا كذب البناة الطغاة الفسدين في الأرض ، واحذروا بيناواتهم وصنعايم فإنهم الحارقة الآكلة إذا استمكنوا منكم وأوضوا إخلالكم بيفنونكم الفتنة وسؤومونكم ذلًا مستورا يهرج الاستقلال وقرير المصير . لا تخافوا مجلس الأمن ولا هيئة الأمم إذا قسمت إليهم قضية فيها كل دليل لا يبطله شيء من تاريخ ولا عقل ولا مصلحة .

وأتم يا أخواننا وأهلنا وعشيرتنا في السودان اجنروا الدولة التي تريد استقلالكم ، وتريد أن تراه لكم ، كما رعت غيره من قبل . فإن « من استرهم الذئب ظلم » محمود محمد شاكر

شعب واحد ناطق بلسان عربي مبين لا يعرف نفاق اللسان الإنجليزي ولا تكاذبه وخداعه ، بأنه أيضا لا يستطيع أن يتجزأ ، ولا هو قابل للتجزؤ .

ولقد استزل الشيطان بعض ساستنا ؛ فأخذوا يقولون إن مصر لا تريد أن تستمر السودان ، بل تريد أن تمنحه الاستقلال الذاتي ؛ فحلا حلا أيها الرجال ، فإن هذا ما يريده الإنجليز ، إنهم يريدون أن تقرأوا بالستكم ما الحق شاهد على بطلانه ، وهو أن الشعب المصري شيء ، والشعب السوداني شيء آخر ؛ ويريدون أن تقولوا إن النيل ممكن أن يتجزأ ، ولو بعض التجزؤ ، فإن هذا حسبهم منكم اعترافًا وقريرًا . فتوبوا أيها الساسة من هذا الإثم ، ولا يرهكم حق تقرير المصير ، ولا مجلس الأمن ، ولا هيئة الأمم المتحدة ، فإن هذه الرهبة باطل كلها . توبوا أيها الساسة ، ولا تخافوا من أكنوبة الدانوب ، فهو النهر الوحيد الذي تمتد دول على جفافه ، وهو نهر ليس له قيمة زراعية . واعلموا أنه لا يكاد يوجد في الدنيا كلها نهر زراعي وأقيم مجراه في أكثر من أمة واحدة ، وهذه الأمة الواحدة يكون لها كل السلطان عليه من منحه إلى معيته . لا تخافوا أيها الساسة

يتردد الطالب إذ يخرج من المدرسة بين طريقين لا يفصل بينهما إلا القليل ، ولكن هذا يمتد إلى الجنة وهذا إلى النار ، وتردد التاجر بين أن يشتري البضاعة أو يبيعها ، وما يتردد إلا بين الخسران والضيق والريح واليسار ...

\*\*\*

دخل من باب وخرج من باب ، ولكن المحطة لم تنظر إليه . فقد رأت من الناس وشاهدت من الأحداث ، وأبصرت من القليل والدموع ، ومن المسرات والأحزان - ما جعلها تملّ ، فأغمضت عينها ؛ وتركت هذا السيل البشري يجرى على هواه يحمل معه ما شاء من لثام وآلامه ، ونامت .

دخل شابا في العشرين متوقفا حاسا ، يقور دمه ويتوثب يريد أن يبلغ الثروة بقفزة واحدة ، وخرج شيخا في سن الشباب لا يقور دمه ولا يتوثب ، ولا يريد أن يبلغ الثروة ولا يفكر فيها . لا يفكر إلا في شيء واحد هو أن يرى نفسه ناعما على صفحة النسيم ، مرخي الأعصاب ، منمض العينين ، لا يصنع شيئا ، ولا يعمل فكره في شيء حتى ... حتى يبلغ ساحل الموت . دخل يحب الشهرة ويطمع فيها ، يريد أن يعرف الناس ويرفوه ، وخرج زاهدا في الشهرة ، خائفا من تكاليفها ، يفرح من لقاء الناس لا يريد أن يعرف أحدا ولا يعرفه أحد .

دخل المحطة يستقبل الشام ، يذمه الشوق إليها ، والنوام بها ، يستقبلها بيسمة تبدو من خلال دموع الفرح ، كما تبدو شمس نيسان من خلال النمام ، وترك من أجلها مقعده في دار السلام ، ومستقبله في مصر وخرج هاربا من دمشق يريد أن يعتمد عليها حتى لا يأسى على ما يرى فيها ، وما يكاد يرى فيها إلا ما يبيت الأسي ...

كان طالبا في المدرسة همه الارتقاء من فصل إلى آخر ، وقيامته الامتحان يريد النجاح فيه ، فصار موظفا لم تعد له غاية يسعى إليها ، ولا هم يفكر فيه فتشابهت أيامه ، وتماثلت لياليه ، وخلت من كل جديد ، يصبح خاملا متكاسلا لأنه لا يربح في نهاده شيئا ، وعسى متكاسلا خاملا لأنه لا ينتظر في ليله شيئا ، ولم يعد يجد ما يعمل إلا أن يشغل نفسه ساعة كل أسبوع بالكتابة للرسالة ..

لقد كان إنسانا يحس ويشعر ، وكان له عقل يفكر ويدرس ، وقلب يحب ويصبر ، فمؤدته الوظيفة الكسل ، وسهلت له

ملق بالنواذ ينظر الوجوه فلا يحفل بها ويصرها كالسرج للطفأة ، لأنه يريد وجهها واحداً يراه مضيئاً بالسناه ، حتى إذا وصل إليه وصل إلى السعادة ... فهو يذكرها كلما رأى المحطة . وهذه تكرهها لأنها عرفت الشقاء فيها ، وذاتت غصة الحياة بين جدرانها ، فقد كانت سميدة حتى حل الوداع ، ودنا السفر ، وصحبتته إلى المحطة ، فوقفت معه ، ثم سارته إلى رصيف القطار ، فصعدت معه إليه ، وقعدت تكلمه كما كانت تكلمه كل يوم ، تتحدث بتوافه الأمور ، ولو علمت أن هذا آخر لقاء ما كان ذلك حديثها ؛ ثم صفر القطار فشدت على يده وعانقته عناقاً خفيفاً على استحياء من الناس ونزلت ، فوقفت تنظر إليه وهو في شبابه ، والقطار يبتعد .. ولكنها لا تزال تمشي بقربه لم تذق بعد طعم الهجرة ولم تعرفه ، حتى إذا اختفى عن ناظرها وراى نفسها منفردة ، صحت كما يصحو النائم من الحلم المتع ليس في يده شيء منه ، وتبدلت حياتها السميدة بالوصال شقاء وألم ، وانطلق النور الذي كان يهيمها السيل ، وكانت المحطة هي خاتمة سادتها ، وهي فاتحة شقائها ، فهي ترحم إليها كل يوم ، تقوم حيث قام الحبيب آخر مرة ، وتشم عبقه وتتحنن موطن أقدامه وتبحث عنه حيث تركته في شباك القطار ، وتذكر كل حركة من حركاته ، وكلمة من كلماته ، حتى صار ذلك مدار أفكارها ، وعماد حياتها ، ولكنها كانت تكره المحطة ، لأنها هي سبب الفراق ...

وما في الدنيا مكان تسقر فيه محجبات المواطف ، وتبرز مكنونات الضمائر كالمحطة ، وما في الأمكنة ما هو أحفل بالذكريات منها ، ففي كل إصبع منها ذكرى عزيزة على قلب ، وقطعة من حياة إنسان .

هنالك تبصر المختلف من ألوان الحياة قد اختلف في هذه الصورة المرؤضة ، والشثيت قد اجتمع ، وهنالك أمام الحاجز الحديدي ذى الأبواب المؤدية إلى الأرصفة ، لا يفصل باباً عن باب ، ورصيفاً عن رصيف إلا جدار ... ترى جموع الناس في مدّة وجزر . كما تضرب أمواج البحر صخرة الشاطئ ، يدخل الرجل من الباب فيصل منه إلى البلد الطيب ، ويدخل الآخر من الباب إلى جنبه فيحمله إلى القرية المقفرة ، وهذا الرصيف فيه لقاء الأحبة ، وهذا فيه الحجر والبياد ، وكذلك الخلوذ في الحياة تتقارب بداياتها وتباعد نهاياتها :